من انواع الادب المصري الذي انتشر بيننا الآن بما تراهُ من القصص التمثيلية الهزلية المعروفة عندنا فانها تحتوي على كثير من نقد احوالنا الاجتماعية . ولا يزال الادب المصري في اول مرحلة من مراحله . وسنتكلم عن الشعر المصري الحديث في مقال آخر

احمد ضيف

جابر بن حيان

١ — ماهيته التاريخية

لعل أبا عبدالله او ابا موسى[1] جابر بن حيان بن عبدالله اشهر من يذكرهُ تاريخ العلم في العصر العربي من العلماء . فان اسمهُ يقترن من حيث الشهرة ومن حيث الاثر النافع باسماء العظماء من رواد الحضارة والعمران . ولقد قال فيهِ الاستاذ « برتيلو » المؤلف الفرنسوي ، وصاحب كتاب « تاريخ الكيمياء في القرون الوسطى » ان اسمهُ يحتل في تاريخ الكيمياء منزلة اسم ارسطوطاليس في تاريخ المنطق . فكانَ جابراً عند « برتيلو » اول من وضع لعلم الكيمياء قواعد علمية تقترن باسمهِ في تاريخ الدنيا

ولقد عُرف جابر بن حيان في العالم اللاتيني باسم « جيبر » Geber واشتهر بكتاب عرف في اللاتينية باسم Summa perfectionis — ويقول العلامة هوليارد بان هذا الكتاب مأخوذ عن كتاب جابر المسمى « الخالص » . على ان لجابر في العالم اللاتيني كثيراً من المؤلفات المنسوبة الى من يعرفونهُ باسم « جيبر » ، غير ان هذا الكتاب اشهرها واعمها بين الناس انتشاراً . على ان الفرق بين « جابر » و بين من يعرف في العالم اللاتيني باسم « جيبر » قد ذهب ببعض المؤلفين في العصور الاخيرة الى القول بانهما شخصان مختلفان . ولكن الاستاذ هوليارد قد اثبت ان جابر بن حيان هو بعينهِ المعروف في العالم اللاتيني باسم « جيبر » ، وان كل الكتب المنسوبة في اللاتينية الى الاسم الاخير هي تراجم او اقتباسات عن مؤلفات العالم الفارسي اصلاً ، العربي نسبةً

في القرن الثامن الميلادي (الثاني من الهجرة) عاش جابر بن حيان في بلاط الخليفة هرون الرشيد في بغداد . وكان على صلة حسنة بالبرامكة ، والظاهر من سيرتهِ انهُ

(١) يقول بعض المؤرخين ان اسمه ابو عبدالله وآخرون يقولون انه ابو موسى واذا صحت الروايتان دلتا على انه كان لجابر ولدان يدعى احدهما عبدالله والآخر موسى

كان اشد تعلقاً بهم منهُ بخليفة المسلمين[1] ، لان البرامكة كانوا يعلقون على علم الكيمياء شأناً كبيراً ، وكانوا يشتغلون بذلك العلم و يدرسونهُ درساً عميقاً . ولقد ذكر جابر في كتابهِ « الخواص » كثيراً من المحاورات التي وقعت بينهُ و بينهم في مفصلات هذا العلم. و يقول القفطي في ترجمة جابر في كتابهِ « تاريخ الحكماء »[2] انهُ برز في فروع العلوم الدائمة في عهدهِ ولاسيما علم الكيمياء . والظاهر انهُ كان لهُ نصيب من الاشتغال بعلم الطب وطرق العلاج ، لانهُ كان من الشائع في ذلك العهد ان يقترن العلم بالكيمياء بالعمل في في صناعة الطب

كل هذه الاشياء تحوط اسم جابر بن حيان بكثير من الاسباب التي تدعو الى التأمل والنظر . اما ماهيتهُ التاريخية فالمحقق منها اشياء خمسة :

اولاً — ان اسمهُ جابر بن حيان (بن عبدالله)[3]

ثانياً — انهُ كان فارسيًّا اصلاً ، عربيًّا نسبة ومنشأ

ثالثاً — انهُ عاصر الرشيد والبرامكة

رابعاً — انهُ كان على صلة ما بجعفر الصادق

خامساً — انهُ اشهر من ألف في العربية في علم الكيمياء

***

٢ — حياته ومولده

هو ابو عبدالله جابر بن حيان بن عبدالله الكوفي[4] وقد يذكر بكنية ابي موسى . ولا يعرف بالضبط مكان ميلادهِ . ولكن كل الثقاة من المؤرخين يكادون يجمعون على انهُ ولد اما بطوس في خراسان ، في الشمال الشرقي من بلاد فارس ، وإما في حران بالعراق . على انَّ بعض الذين ترجموا عن حياتهِ من المشتغلين بعلوم المشرق وتاريخهِ يرجحون

(١) ولعل هذه الصلة راجعة الى عاطفة قومية اكثر منها الى علاقة علمية

(٢) « جابر بن حيان الصوفي الكوفي » كان متقدماً في العلوم الطبيعية بارعاً في صناعة الكيمياء وله فيها تآليف كثيرة ومصنفات مشهورة . وكان مع هذا مشرقاً على كثير من علوم الفلسفة ومتقلداً للعلم المعروف بعلم الباطن . وهو مذهب المتصوفين من اهل الاسلام — وذكر محمد بن سعيد السرنسطي المعروف بابن المشاط الاسطرلابي الاندلسي انه رأى لجابر بن حيان تأليفاً في عمل الاسطرلاب يتضمن الف مسألة لا نظير له » راجع تاريخ الحكماء ص ١١١ طبع مصر

(٣) ولعل عبدالله تسمية لغير مسروف كالعادة المتبعة في صرف اسم (عبدالله) على الجدغير المعروف في نسبة شخص ما

(٤) راجع ابن النديم في كتاب الفهرست

ان طوس مسقط رأسهُ[١] وكذلك يجمع كل الثقاة على انهُ قضى شطراً من حياتهِ في مدينة الكوفة [٢] — وكان صديقاً للبرامكة وزراء هرون الرشيد[٣] ، وانهُ عاش ردحاً من الزمان في بلاط بغداد . وقد ينسبهُ بعض الباحثين الى طرسوس ، كما فعل المستشرق « وأستنفلد » Wastenfeld او يذهب غيرهُ الى انهُ صابئيٌّ من حرّان ، كما فعل المستشرق « دربلو » — d'Herbelot — في المؤلف المسمى « المكتبة الشرقية » Bibliothèque Orientale — ص ٣٦٠

ومن اغرب ما عثرت عليهِ في اقوال بعض الذين ترجموا عن حياة جابر من الافرنج ان بعضهم نسبهُ الى اشبيلية من بلاد الاندلس[٤] وليس هذا هو الخطأ الوحيد الذي وقع فيهِ الاوربيون في ترجمة جابر . فقد ذكر في بعض التراجم ان جابر — «اشهر امراء العرب وفلاسفتهم» [٥] . وفي موضع آخر انهُ عربي مجرد عن كل نسب[٦] ثم تجد انهُ « ملك العرب » [٧] وفي مخطوطة [٨] — من المخطوطات نعت بانهُ ملك العجم ، وفي مخطوطة نادرة كتبت قبل سنة ١٥٠٠ م يدعى بملك الهند [٩] — وهذا يدل على ان

---

(١) يقول الاستاذ هولمياردHolmyard ( ) « ان الراجح ان يكون جابر بن حيان قد ولد بطرس مسقط رأس الفردوسي الشاعر الفارسي المشهور » . راجع مجلة Science Progress عدد شهر يناير سنة ١٩٢٥ ص ٤٢٠

(٢) قال الاستاذ هولمياردHolmyard — « يقال ان معمل جابر بن حيان الكيماوي قد صُرِّب به في اثناء الحفر في انقاض منازل بمدينة الكوفة منذ قرنين من الزمان» . راجع مجلة Science Progress عدد يناير سنة ١٩٢٥ ص ٤٢٠

(٣) يستدل على ذلك بانهُ اهدى اليهم كثيراً من كتب المروقة

(٤) يرجح كثيراً ان السبب في هذا الخطأ راجع الى تشابه في الاسم بين جابر ابن حيان وجابر ابن افلح الاشبيلي الفلكي المعروف الذي عاش في القرن الحادي عشر الميلادي (القرن الخامس الهجري)

(٥) راجع ترجمة رسل — Russell — لمؤلفات جابر المطبوعة بالانكليزية في لندن سنة ١٦٧٨ م ، حيث ذكر انهُ "the most famous Arabian prince & philosopher"

(٦) راجع النسخة المطبوعة من مؤلفات جابر في نورمبرج Nuremburg سنة ١٥٤١ م

(٧) في النسخة المطبوعة من مؤلفاته في « دانزج Danzig» سنة ١٨٤٢ م . ومن الغريب ان تطبع هذه النسخة في اواسط القرن التاسع عشر ويدعى فيها جابر بانهُ ملك العرب مع ان الاوربيين كانوا قد جاسوا خلال الشرق وكل كتب التراجم العربية المشهورة لا يخلو منها كتاب من ترجمة لجابر

(٨) Liber practicus Geberis de investigatione perfectai Majestrii في مكتبة بودلي باكسفورد

(٩) Liber qui Flos nautrarum vocatur, 1473. طبع سنة ١٤٧٣ .

الاوربيين حتى عهد قريب لم يحققوا شخصية جابر بن حيان ، وان كل علمهم بشخصه كان قاصراً على انهُ « شرقي » وان غالبهم كان يعتقد انهُ « عربي » ، في حين انهُ فارسي ينسب الى المدرسة الكيماوية العربية

***

و يستدل من التواريخ المحققة ان البرامكة ظلوا متمتعين بثقة هرون الرشيد سبعة عشر عاماً اي من سنة ٧٨٦ الى ٨٠٣ ميلادية (١٧٠ — ١٨٨ هـ) . فعلى هذا نستطيع ان نرجع بحياة جابر في عهد نشوئهِ وشبابهِ الى تاريخ سابق على سنة ٧٦٥ م (١٤٨ هـ) وهي السنة التي توفي فيها جعفر الصادق ، وان عهد رجولتهِ يقع في الربع الاخير من القرن الثامن الميلادي الى ما بين (٧٧٥ — ٨٠٠ م = ١٥٩ — ١٨٤ هـ) اما حجي خليفة في كتاب « كشف الظنون » فيقول بانهُ توفي سنة ١٦٠ هـ . اي ما بين سنتي ٧٧٦ و٧٧٧ ميلادية . غير ان هذا القول ظاهر الخطإ اذا راعينا الاعتبارات السابقة وذكرنا علاقة جابر بالبرامكة ، تلك العلاقة المحققة الوجود بكثير من المراجع التاريخية الثابتة

اما الجلدكي [1] فقد روى في كتابهِ « نهاية الطلب » كثيراً مما عانى كيماويو العرب لدى اول اشتغالهم بهذا العلم من الاضطهاد والمصاعب . وذكر عن جابر بن حيان انهُ خلص من الموت مراراً عديدة ، كما انهُ قاسى كثيراً من انتهاك الجهلاء لحرمتهِ ومكانتهِ ، وانهم كانوا يحسدون عليهِ علمهُ وفضلهُ ، وانهُ اضطر الى الالتجاء ببعض اسرار الصناعة (اي الكيمياء) الى هرون الرشيد والى يحيى البرمكي وابنيهِ الفضل وجعفر ، وان ذلك هو السبب في غنائم وثروتهم . ولما ساورت الرشيد الشكوك في البرامكة وعرف ان غرضهم نقل الخلافة الى العلويين مستعينين على ذلك بمالهم وجاههم ، وقتلهم عن آخرهم ، اضطر جابر بن حيان ان يهرب الى الكوفة خوفاً على حياتهِ [2] حيث ظل مختبئاً حتى ايام المأمون فظهر بعد احتجابهِ . وكل ما يهمنا في هذه الرواية أن المعروف على رواية ابن النديم وحجي خليفة انهُ توفي سنة ١٦٠ هـ (٧٧٦ — ٧٧٧ م) . ولكن اذا صحت رواية الجلدكي فلا بد من ان يكون جابر قد عاش بعد هذا العهد بزمان طويل ، لان المأمون لم يرتق عرش الخلافة الاَّ سنة ١٩٨ هـ = ٨١٣ م . وهذه الروايات المتناقضة توسع مجالاً كبيراً للبحث والتأمل

(١) مؤلف واسع الاطلاع على تاريخ كيماويي العرب توفي سنة ١٣٦٠م ٧٦٣ هـ
(٢) لعل هذا هو السبب في نسبة الكوفة عند بعض المؤرخين

٣ — مؤلفاته

كان جابر بن حيان من اكثر العلماء كتابة وتأليفاً. اما قائمة كتبه الاصلية التي كانت بين يدي ابن النديم صاحب الفهرست فقد فقدت . وكذلك تجد ان القائمة التي ذكرها في الفهرست ناقصة لا يعتمد عليها كمرجع يصح ان يعتبر كاملاً . اما العلامة « فلوجل » — Fluge — الالماني فاعتمد عليها واتخذها مرجعاً تاماً ، وكان ذلك من اكبر الاخطاء التي اعثورت بحثهُ في حياة جابر هو وتلاميذهُ الملتفون من حوله ، الناحون في البحث نحوهُ [1] اما ترجمة « برتيلو » [2] لاسماء الكتب التي اخذها عن الفهرست لابن النديم فاكثرها غير صحيح ، وفي ذلك دلالة على انهُ لم يستطع ان يدرك معنى الاسماء ادراكاً تاماً ، وانهُ لم يحقق ما وقع فيها من التصحيف والخطأ النقلي

اما اذا اردنا ان نذكر كل مؤلفات جابر التي تناقلت اسماءها الالسن منسوبة اليهِ فان ذلك يشغل فراغاً كبيراً . ولكننا نذكر هنا اشهر كتبهِ المعروفة مقسمة الى اربعة اقسام — الاول — (ا) الكتب التي ذكرها صاحب الفهرست والتي يوجد منها طبعات معروفة او مخطوطات محفوظة الثاني (ب) كتبهُ المشهورة التي لم تعرف في العالم العربي الحديث وعرفت في اوربا — والثالث (ج) الكتب المذكورة في الفهرست وهي اما معروفة بالاسم فقط واما موجودة بالفعل — والرابع (د) الكتب التي لم تعرف الأعناوينها

ولقد اجمع اكثر من وقفت على كتاباتهم في جابر على ان كتاب « السموم » من الكتب التي فقدت ولم يعرف منها الا اسمها ، ولكن الحقيقة على الضد من ذلك كما سنرى بعد

***

(ا) الكتب التي ذكرها صاحب الفهرست والتي يوجد منها طبعات معروفة او مخطوطات محفوظة

(١) كتاب اسطقس الاس الاول نقل بالزنكوغراف في الهند سنة ١٨٩١

(٢) كتاب اسطقس الاس الثاني نقل بالزنكوغراف في الهند سنة ١٨٩١ الجزء الثاني منهُ دون الاول

(٣) كتاب اسطقس الاس الثالث نقل بالزنكوغراف في الهند سنة ١٨٩١ و يظهر ان الجزء الثالث من هذا الكتاب هو المعروف عند صاحب الفهرست بكتاب الاسطقس

(١ و ٢) راجع الاستاذ هولمارد رئيس القسم العلمي في الجمعية الطبية الملكية باختصار من مقالات عن جابر بن حيان

(٤) كتاب تفسير الاسطقس. هذا يضاف الى الكتب الثلاثة المتقدمة ولم يذكره صاحب الفهرست

(٥) كتاب الواحد الاول منهُ نسخة بالقسم العربي من المكتبة الاهلية (Bibliothèque Nationale) بباريس في المجموعة رقم ٢٦٠٦ ، ويرجح انهُ هو بعينه الكتاب الذي ذكرهُ صاحب الفهرست باسم كتاب الواحد الكبير

(٦) كتاب الواحد الثاني منهُ نسخة بالمكتبة الاهلية بباريس بالمجموعة رقم ٢٦٠٦ ويرجح انهُ المعروف عند ابن النديم باسم كتاب الواحد الصغير

(٧) كتاب الركن يرجح انهُ بعينهِ كتاب الاركان . وقد اخذت مقطوعات منهُ في القسم السابع من كتاب « رتبة الحاكم » للمجريطي ، ويقول هوليارد بان كتاب رتبة الحاكم نسب خطأ الى المجريطي . وقد ذكر جابر ثمة كتابًا لهُ باسم كتاب الاركان الاربعة في كتابهِ « نار الحجر » اما المجريطي فهو ابو القاسم مسلمة بن احمد المجريطي الذي عاش في مدينة مدريد في حكم الحكم الثاني (٩٦١ — ٩٧٦ م) درس الفلسفة والرياضيات والفلك والكيمياء في الشرق وكان على صلة باخوان الصفا ، ويظن انهُ كتب بعض فصول من رسائلهم المعروفة ، بما في ذلك الفصل المكتوب في الكيمياء وقد اكثر من ذكرهم في كتابهِ رتبة الحاكم

(٨) كتاب البيان نقل بالزنكوغراف في الهند سنة ١٨٩١

(٩) كتاب النور نقل بالزنكوغراف في الهند سنة ١٨٩١

(١٠) كتاب الزئبق . طبع برتيلو المؤلف الفرنسوي كتابين احدهما باسم كتاب الزئبق الشرقي والآخر باسم كتاب الزئبق العربي نقلهما عن مكتبة ليون في القسم العربي بمجموعة رقم ٤٤٠ ، ومنهما نسختان بالمكتبة الاهلية بباريس بالمجموعة رقم ٢٦٠٦

(١١) كتاب الشعر منهُ نسخة بالمتحف البريطاني بالمجموعة رقم ٧٧٢٢ غرة ه

(١٢) كتاب التبويب منهُ نسخة بالمكتبة الاهلية بباريس بالمجموعة رقم ٢٦٠٦ ، وذكرهُ الطغرائي ، راجع المجموعة رقم ٨٢٢٩ بالمتحف البريطاني

(١٣) كتاب الدرة المكنونة في المتحف البريطاني مخطوطة بهذا العنوان ضمن مؤلفات جابر بن حيان بالمجموعة رقم ٧٧٢٢

(١٤) و(١٥) كتاب الشمس، وكتاب القمر اي كتاب الذهب، وكتاب الفضة ،

يرجح انهُ مختصر عن كتاب الاحجار السبعة وقد ذكرهُ الجلدكي في نهاية الطلب ، ومنهُ نسخة بالمكتبة الاهلية بباريس بالمجموعة رقم ٢٦٠٦

(١٦) كتاب التراكيب منهُ نسخة بالمكتبة الاهلية بباريس بالمجموعة رقم ٢٦٠٦ ويرجح انهُ الذي ذكر في الفهرست باسم كتاب التراكيب

(١٧) كتاب الحيوان . يذكر الجلدكي كتابًا نسبة الى جابر بعنوان كتاب حياة الحيوان

(١٨) كتاب الاسرار . يرجح انهُ كتاب سر « الاسرار » المحفوظة منهُ نسخة بالمتحف البريطاني (بالمجموعة رقم ١٣٤١٨ نمرة ١٤) وانهُ هو الذي ذكر منهُ الطغرائي عدة مقطوعات في عدة مواضع (راجع مجموعة المتحف البريطاني رقم ٨٢٢٩) وفي اللاتينية مخطوطة تنسب الى جابر عنوانها (Secreta secretorum) في كلية جونفيل وكايوس Govnille & Caus college رقم ١٨١ وفي كلية كوربس كرستي Corpus Christi كيردج رقم ٩٩

(١٩) كتاب الارض . لجابر كتاب « ارض الاحجار » طبعه برتيلو مأخوذاً عن مجموعة ليدن رقم ٤٤٠ ومنهُ نسخة بالمكتبة الاهلية بباريس بالمجموعة رقم ٢٦٠٦

(٢٠) كتاب التركيب الثاني منهُ نسخة بالمكتبة الاهلية بباريس بالمجموعة رقم ٢٦٠٦

(٢١) كتاب الخواص . منهُ نسخة بالمتحف البريطاني رقم ٤٠٤١ و بالمجموعة رقم ٢٣ ٤١٩

(٢٢) كتاب التذكير . ترجم العلامة هوليارد اسم هذا الكتاب في الانجليزية (The book of rendernig Masculin) فهو اذن خاص بالبحث في عنصر الانتاج المعروف وليس مأخوذ عن مجرد التذكر الذهني . وفي المتحف البريطاني مخطوطة بهذا العنوان مذكورة ضمن مؤلفات جابر بالمجموعة ٧٧٣٢ رقم ١٢

(٢٣) كتاب الاستهام . ذكر الطغرائي بعض مقطوعات صغيرة من هذا الكتاب (راجع محفوظات المتحف البريطاني رقم ٨٢٢٩) وكذلك ذكرهُ الجلدكي في كتابهِ نهاية الطلب . وهذا الكتاب يقابل اسم الكتاب المعروف في اللاتينية ومنسوب الى جابر بعنوان Liber de investigatione perfectioni

(٢٤) كتاب الاحجار نقل بالزنكوغراف في الهند سنة ١٨٩١

(٢٥) كتاب الروضة . ذكرهُ الجلدكي في الجزء الثاني من كتابهِ نهاية الطلب

(٢٦) كتاب المنافع في مكتبة برلين مخطوطة رقم ٤١٩٩ بعنوان كتاب منافع الاحجار

(٢٧) كتاب الايضاح نقل بالزنكوغراف في الهند سنة ١٨٩١

(٢٨) كتاب مصححات افلاطون منهُ نسخة بالقسطنطينية بمكتبة راغب باشا مجموعة ٩٦ رقم ٤

(٢٩) كتاب الضمير منهُ نسخة بالمكتبة الاهلية بباريس بالمجموعة ٢٦٠٦ وذكرهُ الجلدكي في الجزء الثاني من نهاية الطلب باسم كتاب الضمير في خواص الاكسير

(٣٠) كتاب الموازين طبعهُ برتيلو مأخوذاً عن نسخة بليدن محفوظة بالمجموعة ٤٤٠ وبظن مستر هولمارد ان هذا الكتاب هو المعروف باسم Liber de ponderibisartis المحفوظة منهُ نسخة في مكتبة الجمعية الكيماوية بباريس رقم ١٦٥٤ ص ١٠٣ في فهرست المكتبة

(٣١) كتاب الملك ذكر صاحب الفهرست ان جابر قد ذكر انهُ الف كتاباً باسم كتب الملك . وهذا يدل ان صح على ان الكتاب المذكور كان يتكون من عدة كتب جمعت تحت عنوان واحد . ومما يؤيد هذا الزعم ان برتيلو طبع كتاب الملك عن نسخة بليدن رقم ٤٤٠ في المجموعة العربية في حين توجد نسخة اخرى مختلفة عما طبع برتيلو في المكتبة الاهلية بباريس رقم ٢٦٠٥ وهاتان النسختان مختلفتان عن نسخة من كتاب الملك نقلت بالزنكوغراف في الهند سنة ١٨٩١ . ويرجح هولمارد ان هذا الكتاب نقل الى اللاتينية وذكرهُ بوريليوس Borellius راجع محفوظات الجمعية الكيماوية بباريس رقم ١٦٥٤ ص ١٠٣ وذكرهُ كاريني Carini ايضاً بعنوان Rivista sicula

(٣٢) كتاب الرياض . منهُ نسخة بمكتبة بودلي رقم ٧٠ واخرى بالمتحف البريطاني مجموعة ٧٧٢٢ رقم ٥

اسمعيل مظهر